من طقوس السفر قبل الإسلام

كانت للعرب مذاهب وأفكار ومعتقدات خاصة حول السفر والمسافر قبل الإسلام، لما كان يكتنف حياتهم في الصحارى والمفازات من كوارث وعقبات ووحوش، ولما شاع في مجتمعاتهم ثأر واقتتال وغزو من أجل المال والكلأ والسيادة، ولما كان يؤمنون به من عقائد تجعلهم يعيشون في جو من الخوف المزمن من المستقبل المجهول والظلام البعيد؛

د. قيس كاظم الجنابي

لذا كان المسافر إذا خرج لعمل أو سفر ما يتوقع الكثير من المفاجآت التي تحدث بسبب قوى خفية قادرة على التحكم بحياته ومقدراته، فكان أهله ينتظرون عودته بلهفة وصبر وجلد، فكانت الطقوس السحرية وسيلة لدرء الأخطار المحدقة به، حتى إن الخارجين من مكة كانوا يعتصمون بشجر الحرم حين كانوا يطوقون أعناقهم بلحائه تبركاً أو دفعاً لخطر كامن من مجهول قد يعرقل عودتهم من السفر إلى ديارهم وأهلهم.

وكانت العرب تتشاءم من العواطس أثناء السفر، لأنهم أهل طيرة، حتى إنهم كانوا يقولون للرجل إذا مات: عطس به اللجم.

والتشاؤم من العطاس ضرب من طرق الكهانة، والعطاس هو: ثغاء الشاة ورغاء البعير ونباح الكلب وصياح الطير.

كما كانو يتشاءمون من عطاس البهائم، وهي الظأن في غالب الأحيان، ونتيجة لهذا الخوف من المجهول أثناء السفر، كانوا يأخذون التراب من موضع رجل المسافر، لاعتقادهم أن ذلك أسرع لرجوعه، وهو من طقوس الحب، تفعله المرأة ليعود زوجها من سفره، وبعض الشعوب تعتقد بأنه يمكن إلحاق الأذى بأقدام الشخص عن طريق الأثر الذي تتركه قدماه في الأرض، وعند السلاف الجنوبيين تحاول المرأة أن تجمع التراب الذي انطبعت فيه آثار أقدام الرجل الذي تعشقه ثم تضعه في آنية الزهور وتزرع فيه إحدى الأزهار القطفية الذهبية.

أما إذا غم عليهم أمر الغائب (المسافر)، ولم يعرفوا له خبراً جاءوا إلى بئر من قوم عاد أو حفر قديم ونادوا: يا فلان، أو يا أبا فلان، ثلاث مرات، يعتقدون أنه إن كان ميتاً لم يسمعوا صوتاً، وإن كان حياً سمعوا له صوتاً، ربما توهموه أو سمعوه من الصدى.

وكانوا يعتقدون بأن الجن تخرج للواحد على صورة نصف إنسان يسمونه (شق)، يرون إنه يعرض للمسافر، فربما يهلكه فزعاً أو ضرباً أو قتلاً، ولعل هذا أحد أسباب الخوف من الشعر، فساقوا لذلك حكايات كثيرة لعل أبرزها حكاية علقمة بن صفوان الكناني مع شق. وفي حالة كره من سافر، فإنهم يوقدون النار خلف الزائر الذي لا يحبون رجوعه، ويدعون مع ذلك بالقول: أبعده الله وأسحقه، وأوقدنا ناراً خلفه، وفي أثره.

بينما يرشون الماء خلف من يريدون عودته سالماً، حتى إن عمراً بن كلثوم قال لأحد الملوك: إني لأكره أن آتي الملك فيكلمني من وراء سبعة ستور، وينضح الماء إذا انصرفت عنه.

كما كانوا إذا رحل ضيفهم من ديارهم في سفره وأحبوا أن لا يعود كسروا شيئاً من الأواني وراءه، قال أحد الشعراء:

ولا نكسر الجيزان في أثر ضيفنا

ولكننا نقفيه زاداً ليرجعا

كانت المرأة الفارك وهي المبغضة لزوجها، ترمي خلفه حصاة وروثة، فتقول بطريقة طقسية: يا فول القمر، وظل الشجر، شمال تشمله، ودبور تديره، ونكباء تنكبه، شيك فلا أنتعش. ثم ترمي في أثره حصاة ونواة وروثة وبعرة، ثم تقول: حصاة حصاة حصت أثره، ونواة نأت داره، وروثة راثت خيره، لفعته ببعره.

ولكي يعود المسافر من سفره عليه أن يتجنب الالتفات، لأن ذلك مدعاة لعودته، وتعرضه، وهو أشبه بالعرضة التي ما زالت أفكارها سائدة حتى الآن، ولذلك فإنه لا يلتفت بنظره سوى العاشق الذي يود العودة، قال الشاعر:

دع التلفت يا مسعود وأدم بها
وجه الهواجر من رجعة البلد

وغالباً ما كان المسافر إذا ضل الطريق في فلاة قلب ثيابه، وحبس نافته، وصاح في أذنها كأنه يحكي إلى إنسان آخر، وصفق بيديه قائلاً: الوحا الوحا، النجا النجا، هيكل، الساعة الساعة، إليّ إليّ، عجل، ثم يحرك الناقة فتهتدي، قال الشاعر:

قلبت ثيابي والظنون تجول بي
وترمي برجلي نحو كل سبيل

المعتقدات في المقارنة
تلقائية (التلفت إلى الوراء) بين غريزة الارتباط بالمكان ودوافع النزوح

(وأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون). قرآن كريم (الحجر/ ٦٥)

من النواهي التي ألفناها في بيتنا وكانت واجبة الاتباع لما قد ينجم عند معاكستها من عواقب غيبية سيئة، إن والدتنا - يرحمها الله - كانت إذا عزم أحدنا على السفر تنهاه عن (التلفت إلى الوراء) نهياً شديداً، ثم تقوم بسكب الماء خلفه بعد أن تخرجه من الباب تحت القرآن. وتلك ترتيبات لازمة لعلاقة المسافر وانجاح غايته من السفرة.

حسين علي الجبوري

وكنت أخضع لهذه الترتيبات طائعاً كلما رحلت إلى بغداد لمواصلة دراستي في (دار المعلمين العالية). إلا أن النهي عن (التلفت إلى الوراء) كان صعباً علي، فليس من السهل أن أفارق الأم والبيت دون التزود منهما بنظرة الوداع. فكنت أختلس الإلتفات إليهما والخوف يملؤني مما سيصيبني مقابل اجترائي على كسر المحرمات.

وفي الواقع إن التفاتة النازح نحو المكان المفارق تجري عنده بتلقائية لا شعورية ويمكن عزوها إلى فعل (الحواث الغريزية) التي علقت بالإنسان منذ طفولته الآدمية الأولى، وإحدى هذه الحواث (غريزة الارتباط بالمكان) هذه الغريزة التي ولدت عنده حب الوطن وحب الناس الذين ولد بينهم وعاشوا معه على نفس التراب.

لذلك عندما يتحتم على الإنسان فرض النزوح عن الموطن فإن أصعب الساعات التي تواجهه هي ساعات الانفصال التي تسبق المغادرة. وهي في وضعها شبيهة بالساعات الأولى لانفصال الجنين عن رحم الأم حيث لا يكون الجنين راغباً في مغادرته ولذلك يودعه بأحر البكاء.

وبالمماثلة فإن النازح لا يكون راغباً في الخروج من رحم الوطن فلا يملك ردع نفسه من التلفت إليه حتى إذا توارى عن ناظريه أجهش بالبكاء.

ولم أجد تعبيراً صادقاً يصور هذه الساعات المفعمة بالأسى مثل تعبير الشريف الرضي وهو يعيش الحالة فيقول:

ولقد مررت على ديارهم وطلولها بيد البلى نهب
فبكيت حتى ضج من لغب نضوي وعج بعذلي الركب
فتلفتت عيني، فمذ حفيت عني الطلول، تلفت القلب

وهنا قد لا يجد القارئ ضيراً في استيلاء هذه الحالة على مشاعر الإنسان ويراها من الأعراض الصحية التي تنبئ عن شدة التعلق بالموطن، إلا أنها في كثير من الأحيان تعتبر مرضاً وذلك عند تعرض الإنسان في موطنه للاضطهاد وفقدان الحرية. يقول الشاعر:

إذا لم يكن حراً بموطنه الفتى فسم الفتى ميتا وموطنه قبراً

ففي هذه الحالة يكون النأي عن الوطن حياةً للإنسان والمكث فيه موتاً وقد أوجب الله على المضطهدين في مواطنهم أن يهاجروا عنها ويناوا بأنفسهم إلى مواطن أخرى آمنة وذلك في سورة النساء الآيتان (٩٧، ٩٨).

ولقد كان العربي ابناً للهجرة. والنجعة قدر مكتوب عليه سعياً وراء المكان الأوسع في الرزق، وللوصول إليه توجب عليه أن يقطع كل ما يربطه بموطنه السابق وينطلق بعزم وجرأة، فاعتبر (التلفت إلى الوراء) ضعفاً يلين العزم ويثبط الجرأة فحرمه على نفسه ثم عده فألاً من فؤول الشؤم. وعندما أراد من اسمه (مسعود) أن يفعله وهو برسم الهجرة فنهاه الشاعر وقال:

دع التلفت يا مسعود وارم بها وجه الهواجر تأمن رجعة البلد

ولكن في حالة ارتهان المهاجر بأسر العشق، أنى له أن يفارق الوطن وهوى قلبه فيه؟ وكيف ينأى بوجهه عن الحبيبة وهي خارجة إليه، تسلم باليمنى عليه تحية.. وتمسح باليسرى مجاري المدامع؟

وتدل النصوص التي بأيدينا على أن هذا المعتقد قديم، فهو مدون في الكتب المقدسة وجار في مأثورات الشعوب. وقد سجلته (التوراة) وثناه (القرآن الكريم) وذلك في مأساة النبي (لوط) مع قومه المتأثمين بمرض (السدومية) المزمن. فعندما أمضى الله حكمه على أولئك القوم ومدينتهم (سدوم وعمورة) بالفناء، أرسل ملكين من عنده لينفذا الأمر وينقذا لوطاً وأهل بيته فقالا له: أنج بحياتك ولا تلتفت وراءك ولا تتوقف في كل منطقة السهل. اهرب إلى الجبل لئلا تهلك. فطلب منهما أن يتحول إلى (صوغر) فقبلا.

وما إن أشرقت الشمس على الأرض حتى كان لوط قد دخل إلى (صوغر) فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عنده من السماء، وقلب تلك المدن والساكنين فيها والسهل المحيط بها وكل مزروعات الأرض. وتلفتت زوجة لوط السائرة خلفه وراءها، فتحولت إلى عمود من الملح. (تكوين/ ١٩/ ١٧ وما بعدها).

وقد ثنى القرآن الكريم هذه الحادثة فجاء على لسان الملكين مخاطبين لوطاً: (يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) (هود/ ٨١).

وقد علل الزمخشري سبب منعهم من التلفت فقال: ليوطنوا نفوسهم على المهاجرة ويطيبوها عن مساكنهم ويمضوا قدماً غير ملتفتين إلى ما وراءهم كالذي تحسر على مفارقة وطنه فلا يزال يلوي عليه أخادعه. (الكشاف/ ١/ ٥٦١).

إلا أن الارتباط بالأهل والوطن كان شديداً عند زوجة لوط فإنها (لما سمعت في الطريق هذا العذاب وصوت وقع الأرض التفتت إلى قومها وقالت: (واقوماه) فأدركها حجر فقتلها)، حسب رواية إسلامية.

ونجد هذا المعتقد مأثوراً عند الإغريق من خلال مأساة البطل الأسطوري (اورفيوس) فإنه لما ماتت زوجته الحبيبة متأثرة من لدغة ثعبان، هبط إلى (هادس) العالم السفلي ليبحث عنها فوجدها، فتوسل إلى (بلوتو) و (برسفوني) أن يسمحا لها بالعودة معه إلى العالم العلوي. فقبلا بشرط أن لا يتطلع خلفه إلا بعد أن يخرج من (هاديس). ولكنه في غمرة لهفته الشديدة على زوجته، التفت إليها في آخر لحظة ليستوثق من أنها تتبعه، وما كاد يفعل حتى رآها تجذب إلى الوراء وتختفي عن ناظريه إلى الأبد. (معجم الفولكلور/ عبد الحميد يونس/ ٣١٧).

هل كانت كل هذه التصورات حاضرة في ذهن والدتي عندما كانت تمنعني عن التلفت إلى الوراء وأنا في الطريق إلى دار المعلمين العالية؟ لا أعتقد ذلك لكون ذهنها يقصر عن استيعاب تفاصيل الخزين الثقافي الواسع للبشرية. ولكن يمكن أن يقال أن جزءاً من أصدائه قد وصلها وراثة على شكل محرمات غيبية ضاعت مبرراتها فالتزمت بها للقداسة فحسب، وراحت تنقلها بدورها إلى خلفها وهو جيلنا.

ولسنا ندري هل يأخذ هذا الجيل نفس الدور بتوصيل الأمانة إلى الأجيال اللاحقة أم إنه سينبذها لانتفاء الجدوى منها.

كلمة المحرر

العراق... العراق

في البدء كان العراق وطن خير ومحبة وحضارة.

بدأ التاريخ من هنا، من هذه الأرض حيث صنع الإنسان العراقي رموز التدوين التاريخي الأولى للعالم فكان عصر فجر السلالات قبل أكثر من سبعة آلاف عام وانبنى مجد كلكامش الأسطوري الباحث عن الحقيقة وعن الوجود والخلود، وفي (نفر) انبنت مكتبة الحكمة الإنسانية، وفي آشور كانت مكتبة أخرى من ألواح مفخورة تدون ذاكرة الشعوب القديمة وعلى الأرض محراث وباذرة ومنجل ولدى الجيوش عربة القتال الأولى التي ما عرف العراق من جرائها خيراً.

في البدء كان العراق...

وطناً توالت عليه المحن وآثار أقدام الغزاة لكنه احتواهم بعلمه وفلسفته وحكمته وجدد لهم صيغة وجودهم عبره ومن خلاله فكانت مفاتيح العلوم عنده وأساطير المعرفة الأولى تتجذر في سهوبه وجباله وتوالت القرون والفلسفات والحضارات وظل العراق عصياً على حكام أجرموا بحقه ومحبا لحكام أعطوه ومنحوه حبهم ووفاءهم، وظل العراق يزداد تباريح شوق للحرية التي يفقدها سياسياً في أحيان كثيرة ليتجلى فكرياً كما هو شأنه دائماً.

ظل العراق أغنية هادرة شجية ومفتاح تاريخ إنساني متشعب وملون بشتى التجارب وسيكون العراق دائماً بانثياته وطيفه الشعبي مصدر قوة لأرضه وللإنسانية على مر الدهور فارفقوا بالفتى النبيل وبالشمس الساطعة على الدنيا.. أبداً..

المحرر

ستوديو ثقافة شعبية

الروائية اجاثا كريستي عند اسوار اشور -عدسة حازم باك-

بغداديات
نحت على الخشب للفنان ابراهيم النقاش

سجادة بغدادية

ذاكرة

حسين الأديب الشاعر المرهف

كاظم السيد علي

النجف من المدن الفراتية المعروفة بذائقتها الشعرية وغزارة وعيها السياسي والنضالي منذ القدم.. هذه المدينة العريقة التي أنجبت عبود غفلة وعبد الحسين الشرع وحسين قسام وإبراهيم ابو شبع وهادي القصاب وعبد الحسين ابو شبع وحشد آخر من المبدعين الأفذاذ في ميدان الشعر الشعبي.. برز من بين هذا الخضم المتألق شاعرنا (حسين الأديب) ١٩٠٠ محلة الحويش في أحد أزقة شارع الصادق من أسرة فقيرة وبدأ مشواره الشعري الطويل شاعراً مبدعاً في فنون الأدب الشعبي ولمع نجم (الأديب) في ميدان الشعر حتى اشتهر بقصائده الجميلة والطويلة وأبوذياته وموالاته بين شعراء مدينته:

أحلف بالهوه العذري
وبقيس وهوه مجنون
كل محنه التمر هينه
والفركه أبد متهون
الوادم توصف الحركه
والبلوه المثل بيهه
بلوه أيوب اله ادهور
ما ينسون طاريهه
ليش المثل ميضربوه
بالفركه وأهاليها

وقد كتب الأبوذية المثقلة بالهموم والمعانات الإنسانية التي كان يعاني منها والتي تكشف لوعة حبه ووجده:

لهيب الهجر بالدلال داوي
ربح داوي العذول وخسر داوي
طبيب الجان هاك اجروح داوي
طبيب الأنس عن ادواي عيه

وعندما سمعه الشاعر أمير شعراء عصره (عبود غفلة) أبدى إعجابه به قائلاً:

لو شفت الشعر كلش لطيف وزين

كول الناظمه ابن الأديب حسين

وهي شهادة تقديرية من أمير الشعر والشعراء للراحل (الأديب) وذلك لشاعريته الفذة التي كان يمتلكها بين شعراء عصره فكان يعد من أشهر شعراء الغزل في الشعر الشعبي العراقي. وكانت أكثر القصائد التي كتبها ترجمة لما عاشه من حزن وفرح وبكاء وألم من خلال واقعه اليومي وتجد فيها مسحة حزن عميق كما في هذه السطور التي كتبها عن معاناته الخاصة التي يعاني فيها طوال حياته أنه عاش معذباً في الوصل والهجر ولابد من الإشارة إلى أنه عاش بلا حبيبة وحيداً لم يحظ بشريكة حياة له. حتى مات وتظهر معاناته واضحة في قصيدته الشهيرة التي كانت لها وقفة في نفوس المتذوقين والعشاق للغناء العراقي الأصيل. والتي غنى مقاطع منها المطرب الكبير سعدي الحلي:

أصك بالراح أكول الراح شيجيبه
ما واحد يجيبه وينشكر طيبه
ولفي راح أكول اشلون اسولف عيب
وين اللي يجيبه وينشكر له الطيب
سكمني اجفاه لوع جبدتي التعذيب

لم تقتصر تجربة شاعرنا على القصائد فقط بل كتب في جميع أغراض الشعر الشعبي وأبدع فيها فقد كان يجاري الشعر العربي الفصيح في الموال. والأبوذية والدارمي.

وأخيراً رحل الشاعر حسين الأديب عام ١٩٨٣ صاحب الحس المرهف والشاعرية الفياضة لكنه ظل خالداً في ذاكرة وقلوب وضمائر محبي الشعر الشعبي العراقي.

مكتبة

البهلول بن عمرو الكوفي
رائد عقلاء المجانين

تأليف: د. كامل مصطفى الشيبي

عن المكتبة العصرية ببغداد صدر حديثاً كتاب العلامة الشيبي عن البهلول شخصية وحياة فكرية عاصفة ومكان وجود وعلاقة مفترضة مع هارون الرشيد وسلوك متصوف شديد الحذر كثير الشذوذ عن السياق والدراسة ممتعة تستحق التقدير بفصولها المركزة التي منها: البهلول شاعراً - مجنوناً - زاهداً - متصوفاً - قبر البهلول - المتسمون بالبهلول.

آلهة الشمس
كون - تيكي

تور هيردال

ترجمة: نوفل محمد نوري

كتاب أصدرته الشؤون الثقافية ببغداد عام ١٩٩٠ بـ٢٢٤ ص للعالم النرويجي هيردال عن رحلته الاستكشافية عن أسطورة كون - تيكي الإمبراطور الأسطوري قبل عصر الانكا الذي اختفى في بيرو ليظهر في جزر البولينز وقد جسد المؤلف رحلته عبر المحيط الهادئ في هذه الأوراق الشيقة التفاصيل معيداً بناء تلك الأسطورة.

مسرح الفولكلور

تأليف: د. عبد الحميد يونس

من إصدارات الهيئة المصرية العامة للكتاب صدر هذا الكتاب بطبعة جديدة للباحث الرائد د. يونس دعا فيه منذ سبعينيات القرن الماضي إلى إنشاء مسرح خاص بالأداء الفولكلوري معرفاً هذا المسرح بقدرته على تقديم المادة الفولكلورية دون حذف أو إضافة باعتباره مسرحاً يقدم الآداب والفنون الشعبية مع احتفاظها بصورتها الأساسية دون تغيير كالذي يريده المؤلف والمخرج العصري بداعي الاستلام والتغيير وباعتبار أن مسرح الفولكلور هو المسافة التي تقع بين علم الفولكلور وعلم المسرح.